

العروبة في قلب الاختراب

المشترك والمضيء في ثقافتنا العربية

. ناصر الرباط * .

مازلنا لا نَعْرِفُهَا تَمَامًا

جيلُ الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين جيلٌ ترعرع على فكرة العروبة. سمعناها مع أناشيد طفولتنا. وأحسنا باندفاعات أهاليها الذين حلموا بها وانتشروا بصعودها إلى قمة الاهتمامات السياسية في الدول العربية التي نالت استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية. ورددنا التغني بها من خلال مختارات الشعر الذي أُجبرنا على حفظه عن ظهر قلب، ومن دون أن نفهم منه شيئاً في سني دراستنا. وهتفنا بحياتها في مظاهرات ومسيرات أُجبرنا أحياناً على السير فيها لدعم قضايا، أو لدعم زعماء فَرَضُوا أنفسهم علينا فرضاً ولم نخترهم أو ننتخبهم. وقرأنا عنها ضمن مقررات شهادتنا المدرسية والجامعية، أو - بالنسبة إلى القلة منا التي اكتسبت وعياً سياسياً مبكراً - في صفوف الأحزاب والتنظيمات التي انتمينا إليها وكافحنا من خلالها. واقتنعنا بالعروبة، أو على الأقل لم نفتش عن بدائل لها لتأطير هوياتنا طوال فترات دراستنا. وأمن الكثير منا بها نبراساً لحياته الفكرية والسياسية والاجتماعية. بل ضحى بعضنا بزهوة شبابه، وأحياناً بحياته، في سبيلها. ولكننا اليوم، وبعد سلسلة هزائم ماحقة ابتدأت بهزيمة حزيران ١٩٦٧

وأوصلتنا إلى احتلال العراق عام ٢٠٠٣، مازلنا لا نَعْرِفُ بعد ما هي العروبة على وجه التحديد. أو مازلنا على الأقل لا نَعْرِفُ ما الذي عناه أهلكنا وأسأتدتنا وزعمائنا عندما قَدَمُوا لنا كإكسير الشافي من كل المشاكل والمصائب. وغالبيتنا قررت التخلي عن الاعتقاد بها والاتفات إلى ما هو أنفع وأبقى في ظل العولمة واقتصاد السوق الحرة، خاصة في هذه الأيام حيث تبدو العروبة من مخلفات عصر مضي يريد له الساسة الكبار في العالم أن يختفي من غير كثير ضجيج أو ضوضاء. القلة القليلة منا ما زالت تُذكر العروبة أحياناً. تذكرها بأسى وأسف أحياناً، وأحياناً بمرارة وحرقة: مرارة الهزيمة، وحرقة فقدان ما اعتدناه من دون أن نفهمه. والقلة الأقل هي تلك التي تحاول فهم العروبة من منظور معاصر، براغماتي أحياناً، ولكنه منظور نقدي يريد أن يفحص في تاريخ الفكرة لكي يقرر إن كانت لها جذور تبرر وجودها، أو فروع ما زالت قابلة للعطاء والاستمرار. وأحب أن أظن أنني واحد من هؤلاء. وأود أن تشاركوني بعضاً من هذه التساؤلات التي أثارتها في متابعة أخبار العالم العربي يومياً من المغترب الأميركي في عز الغزو المسايوي الذي عاشه وما زال يعيشه

أهلنا في العراق وفلسطين بشكل خاص والاستلاب السياسي الذي تعانيه الشعوب العربية كلها من دون استثناء يُذكر بشكل عام؛ فالاغتراب يفتح العين على وجهات نظر مختلفة، ويدفع الذهن إلى مراجعة القنوات لأنها تبدو مختلفة عندما يكون المرء بعيداً عن موطن نشأته.

تاريخ مشترك؟

العروبة اسمٌ مصدر يُفترض أنه يدل على أمة واحدة، هي الأمة العربية. ولكننا اليوم نرى ثلاثاً وعشرين دولة تنتمي إلى ما يُعرف بـ «جامعة الدول العربية»، وتختلف في توجهاتها وسياساتها وأنظمة حكمها وأهدافها. وهي، إلى ذلك، ما زالت تسمي نفسها دولاً عربية، وإن كانت تضيف اسم بلدها بعد صفة «العربية» أو أحياناً قبلها. وهي كذلك ما زالت تتعدت الدول العربية الأخرى بـ «الشقيقة»، حتى عندما تهاجمها إعلامياً، وأحياناً عسكرياً. ولكن يبدو أن بعض هذه الدول نفسها اختارت إطارات تنظيمية أخرى لهويتها، كـ «منظمة المؤتمر الإسلامي» و«مجلس التعاون الخليجي»، ومؤخراً المنتدى الاقتصادي العالمي، والتي تشمل دول الشرق الأوسط التي تدور في الفلك الأميركي، وأسقطت جامعة

* - أستاذ الأغا خان للعمارة الإسلامية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T.).

الدول العربية إلا قليلاً وأسقطت معها العروبة كمسار سياسي وأساس تنظيم قومي. بل إن بعض الدول العربية قد قَبِلَ بصيغة «الشرق الأوسط» اسماً لإطار هويته، مع ما تحمله تلك الصيغة من أبعاد سياسية مأزقية، أهمها: حشرُ إسرائيل في المنطقة كمكوّن أصيل ومنتّم إليها، ونسيانُ أصولها الغربية وعمليةُ زرعها الكولونيالية التي مازالت في حاجة إلى الكثير من مضادات الأجسام الفتاكة لكي يتقبلها المحيط العربيُّ غضباً واضطراباً.

العروبة أيضاً، حسب رأي محاميها، ذات تاريخ قديم ومستمرّ بدأ قبل الإسلام بكثير عندما نزحت قبائلُ من جزيرة العرب شمالاً باحثَةً عن القوت بعد سنواتٍ جفافٍ عجافٍ أو انهيار سدودٍ عظام، وانخرطت في الحياة السهلية والمدنية في بلاد الرافدين والهلال الخصيب، ثم اشتدتْ عودُها وتمكّنت بمجيء الإسلام من جزيرة العرب نفسها ومن تأسيس الدولة الإسلامية الأولى بأيدٍ عربيةٍ وتوجّهاتٍ عربيةٍ ومطامحٍ عربيةٍ. ولكننا مهما فتشنا فلن نجد لهذا التاريخ العربي المشترك وجوداً سياسياً واضحاً. هناك فعلاً وجودٌ لدول عربية هنا وهناك، على مرّ القرون الخمسة عشر الماضية، مثل دولة الرسول والخلفاء الراشدين في جزيرة العرب، ودولة الحمدانيين في حلب، وبنى الأحمر في غرناطة، ودولة

الشريف حسين القصيرة العمر في بداية القرن العشرين. ولكن ما يُعرف اليوم بـ «العالم العربي» لم يتوحّد كلُّه إلا لفترة قصيرة بين نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي في القرن الثامن الميلادي. وحتى في تلك الفترة، كان العالم الذي يُعرف اليوم بـ «العربي» جزءاً من دولة الخلافة الإسلامية التي ضَمّت أمماً وشعوباً أخرى لم تعرّف نفسها أبداً على أنها عربية وإنّ ذاب بعضها لاحقاً في خضمّ طغيان الهوية العربية.

خصائص مشتركة؟

وقد يقول قائل: إذا كان الواقع والتاريخ السياسي لا يقدمان البرهانَ القاطع على صيرورة العروبة، فإنّ هناك الخصائص الثقافية المشتركة والمميّزة للشعوب التي تنتمي إلى العروبة. ولكنّ دعونا نسأل: ما هي هذه الخصائص؟

هل الدين المشترك واحدٌ من هذه الخصائص؟

قطعاً لا. فالإسلام دينٌ غالبية العرب، ولكنه ليس دينهم كلُّهم. وإذا وافقنا أنّ العروبة والإسلام مسمّيان لهوية واحدة، كما يدّعي البعض في هذه الأيام، فإنّه سيتوجّب علينا أن نضمّ الفرس والأترّك والهنود والأندونيسيين - وغيرهم الكثير - إلى العروبة. وهذا مرفوضٌ من قِبَل هؤلاء، وهم الذين

يعرّفون أنفسهم بهوياتهم الوطنية، وغير واقعيّ بطبيعة الأمر. وكذلك، وهذا أنكى، إذا وافقنا على الهوية العربية - الإسلامية التي يجري التركيزُ عليها هذه الأيام، فإنّه سيتوجّب علينا إسقاطُ المسيحيين واليهود واليزيديين والصابئة وغيرهم من الانتماء إلى العروبة، وهم الذين لم يعرفوا لأنفسهم حتى العصر الحالي غيرَ الهوية العربية - وهذا إجحافٌ بحقهم التاريخي وحقّ العروبة في أن واحد. ولا أظنّ أنّ العودة إلى المعروفة القديمة التي رأت في الإسلام مالاً العروبة، كما نَظَر ميشيل عفلق وغيره من البعثيين أو القوميّين العرب، يُفيدنا في شيء؛ فلا هذه النظرية تجاوزت الدين في تعريف الهوية الوطنية (وهذا في رأيي مطلبٌ أساسي في عصر دولة المساواة أمام القانون)، ولا هي نجحت في تحييد الفروق الدينية التي استمرت في النخر في بنية الدولة التي التزمته لسنين طويلة.

حسناً، إذا لم يكن الدينُ المشترك من الخصائص الأساسية للعروبة، فهل التراثُ المشترك إحدى هذه الخصائص؟

الجواب هنا متردّد؛ فليس هو بنعم واضحة ولا بلا صريحة. هناك قطعاً تراثٌ عربيٌّ مشترك، بعضه تاريخي وبعضه موضوع. ولكنه أيضاً تراثٌ مشترك مع العديد من الأمم التي لا علاقة لها بالعروبة. فتراثُ الدول

اللغة العربية هي الوشيجة الأولى التي
تصل بين كل العرب، وربما الوحيدة
التي تحتوي كل ما تمثله العروبة

واحدة. هذه اللغة، التي تسمى اليوم اللغة الكلاسيكية، والتي حُفِظَتْ بِفَضْلِ القرآن الكريم، هي الوشيجة الأولى التي تُصِلُ بين كل العرب. بل ربما كانت الوشيجة الوحيدة التي تحتوي - ضمن أصواتها ومعانيها ودلالاتها وذكريات تاريخها وشعرها ونثرها - كل ما تمثله العروبة، وكل ما جمعته لنفسها عبر تاريخ طويلٍ وصعبٍ ومليءٍ بالأحداث العظام، وكل ما يُمكنها أن تحمله معها في رحلتها نحو المستقبل بغض النظر عن قدرها.

من اللغة العربية تنبع العروبة، وهي بها موجودةٌ وحقيقيةٌ وليست فقط تاريخياً وأحلاماً. إنها تحيا في مكان ما متوسط بين عقول وقلوب الملايين من الناس الذين يتكلمون ويفكرون ويغنون ويحكمون ويتممون ويدرسون ويصلون بالعربية في البلاد العربية وفي المهجر. ولكنها تحتل مراتب متعددة، وأحياناً متخالفة، في مخيلة وذاكرة أبنائها وفي تفاعلهم معها. فهم يُحسِنون بها من خلال تأثيرها على الكيفية التي يُنظرون بها إلى العالم ويتفاعلون بها مع أحداثه. وهم يجدون أثرها في مشاعرهم ومخاوفهم وآمالهم وآرائهم. وهم يرونها في تعبيرات وجوههم، وفي حركات أيديهم. وهم يسمعونها في نطقهم للحروف المميزة لها والخارجة من أعماق حلوقتهم، كالطاء والظاء والعين والغين والقاف - ولاسيما

غيرها على الرغم من الدلائل التاريخية والجغرافية المغايرة. فماذا نستنتج من ذلك؟ هل العروبة كما نعرفها اليوم، ويحكم موطن نشأتها ونموها، سليله الكلاسيكية؟ أم أن بعض العرب الذين لم يشاركوا في الحضارة الكلاسيكية أكثر عروبةً من غيرهم الذين انتموا إليها في وقت ما؟

بالطبع لا. بالإضافة إلى ذلك، ما الذي يُمكننا أن نستشفه من دراسة تراث البلاد العربية الأخرى التي لم تتشارك مع حوض المتوسط في تراثه الكلاسيكي؟ هل نصنّف العراق وفق انتمائه إلى التراث الرافدي - الفارسي مثلاً؟ وهل نربط اليمن بالحبشة، أو عُمان بالهند، أو السودان بقلب القارة الأفريقية، كما تتطلب معطيات الجغرافيا والتاريخ؟ لا توجد إجابات وافية عن هذه التساؤلات، ولكنه من الواضح أن قضية التراث المشترك تثير من المشاكل أكثر مما تحل.

لغة مشتركة؟

لنترك إن هذا السؤال العويص جانباً ومنتقل إلى اللغة العربية، التي يمكن اعتبارها بحق الخاصية الأساسية المشتركة بين العرب، ووعاء هويتهم الحضارية وتاريخهم المشترك بشقيته المثبت والمأمول. فعلى الرغم من تباين وتعدد لهجات أبناء الدول العربية، فإنهم مازالوا يكتبون ويقرأون ويفكرون بلغة

العربية المعاصرة يتقاطع ويتداخل مع تراث دول أخرى إسلامية في غالبها، مثل إيران وتركيا وإسبانيا ووسط آسيا ودول الصحراء الأفريقية خلال الفترة الإسلامية كلها وحتى بداية القرن العشرين. بل إن هذا التداخل قد استمر حتى بعد احتلال الاستعمار الأوروبي لغالبية أراضي السلطنات الإسلامية في العصر الحديث، وبعد نشوء الدول الحديثة بحدودها الجديدة وأعلامها الجديدة وأناشيدها الوطنية الجديدة وجوازات سفرها الجديدة.

فإذا ما نظرنا إلى ما قبل الإسلام فما الذي سنجد؟ سنجد أن بعض البلاد العربية تتشارك مع معظم دول حوض البحر الأبيض المتوسط في التراث الكلاسيكي. فقد عاشت بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا ألف سنة (بين حوالي ٣٣٠ قبل الميلاد و٦٤٠ بعد الميلاد عموماً) كجزء من عالم متوسطي كلاسيكي: هيلينستي بدءاً، وروماني لاحقاً، ومسيحي بيزنطي في النهاية. وقد تفاعلت المنطقة مع تراثها ذلك: فأخذت منه وأعطته، وتماهت معه، وساهمت في العديد من منجزاته الثقافية والأدبية والعلمية والفنية والمعمارية. بل ربما كان لأبناء المنطقة الباع الأطول في دفع عجلة الحضارة التي اصطلحت أوروبا على تسميتها بـ «الحضارة الكلاسيكية» والتي اعتبرتها مهد حضارتها هي نفسها من دون

الضاد، حرّفهم الفريد الذي لا تشاركهم فيه لغة أخرى. وهم يشعرون بها في انسياب خطّهم، وفي تعبيرية وإيقاع شعْرهم، وفي موسيقاهم التقليدية المستعادة والمتأوّهة والمدودة - بانتظارها وصبرها وأملها وتغنيها بالحبيب. وهم يتذوّقونها في أكلاتهم الحريفة والدسمة، في حمصهم وفلافلمهم، في تبؤلتهم وبابا غنّوجهم، في كبّتهم وطاجنهم، في ملوخيّتهم وخبيزتهم، في كبّستهم وكُسكسهم، وفي تمنهم ومسقوفهم، ويشربونها مع قهوتهم السوداء القوية والمحصّصة والمطعمّة بحبّ الهال. وهم في النهاية يتذكّرونها أكثرَ عندما يفتقدونها، خصوصاً في الأوقات العصيبة أو على البعد في المهجر.

اتّساح «العروبة»

في ظروف كهذه، تصبح الذكريات هي البؤرة التي تنّجم فيها كلّ تلك التعبيرات الصغيرة والعادية عن الهوية وعن أبعادها الثقافية، كالأغاني والرقصات والقصص والملاحم والصوّر القديمة والأزياء والأكلات الشعبية وما شابهها، ربما لتعوّض الناس عن فقدان الوطن الحقيقي، أو لتشحن قدرتهم على مواجهة التحدي والمحافظة على الإحساس بالذات. ولكنّ الناس أنفسهم، في تلك الظروف الحرجة، يستسلمون أحياناً لليأس، أو

لذاكرةٍ مملّقةٍ أو مبتسرةٍ صنّعها مرتزقون تاريخيون من ضمن منظور عقائدي في غالب الأحوال، ويخصّرون تاريخهم في شرنقة هذه الذاكرة الخائقة، ويروضون كلّ قراءةٍ مخالفةٍ أو مكملّةٍ لها. وهذا في رأيي هو ما حصل عندما مُتيت الدول العربية بالهزائم المتتالية في النصف الثاني من القرن العشرين. ففي الأجواء السياسية والعقائدية المحمومة التي عاشها الوطن العربي إجمالاً في تاريخه الحديث، طغت الدعوات المتشنّجة إلى اتّخاذ مواقف حدية وشوقينية، وإلى الشكّ في الآخر ورفضه قبل الدخول في حوار معه. ونمت في هذا الجو عنجهية قومية تداري جراح خيبتها بصهر الفروق الإثنية والقومية في البلد الواحد، وأحياناً بإلغاء حاملها والمدافعين عنها بدعوى الانتماء إلى الأمة الواحدة. واتّسخت سمعة العروبة لتصبح مرفوضة من بعض أبنائها، ومخدولة من بعض منظّريها السابقين.

نقاط مضيئة

ومع ذلك، فهناك نقاط مضيئة في العالم العربي وفي الشتات العربي تزدهر فيهما إمكانيّة عروبةٍ منفتحةٍ ومتحرّرةٍ وعالميةٍ، وإن كانت ما زالت في حاجة إلى الكثير من الرعاية والاهتمام والإخلاص الفكري والثقافي. ولعلّ أهم

هذه البؤر الثقافية والسياسية فلسطين المحتلة والجاليات العربية في الغرب. فكلا الطرفين في بداية نضاله لتعريف هويته الثقافية خارج الإطار الجيوسياسي للعالم العربي وأدواته القمعية. وكلاهما يقف في مواجهة تحديات هائلة من نوع آخر.

فالمشهد الثقافي العربي في أوروبا والولايات المتحدة اليوم غنيّ باتجاهاته الديناميكية التي تحاول الاستجابة لضغوط الهجرة والتميز العنصري من جهة، والانتماء والحنين من جهة أخرى. وتبرز هذه الخواص في أعمال الكثير من الفنانين والكتّاب والمفكرين العرب، المهاجرين والمقيمين والمنتجين في أوروبا والولايات المتحدة. وكذلك تبرز هموم الوطن الأم وهموم التحرّر في الصحف والمجلات العربية التي تُنشر في الغرب، وفي القنوات الفضائية التي تُبثّ بالعربية، وفي الكتب التي تُطبع بالعربية، وفي الأفلام السينمائية عن العالم العربي التي تُنتج من قبل سينمائيين عرب، وفي أصوات المغنّين العرب التي تصدح على مسارح وإذاعات بلاد الهجرة. يرافق هذا الزخم الثقافي العربي في بلاد المهجر، حيث تتوافر حرية نسبية، حضور سياسي وتنظيمي لمذاهب دينية وحركات صوفية وكنائس شرقية وحركات فكرية وسياسية نابعة من العالم العربي ومضطهدة فيه ولكنها

فلسطين والشتات العربي نقطتان
مضيئتان تزدهر فيهما إمكانية عروية
منفتحة ومتحررة وعالمية

مهمومةً بهمومه. وكذلك الحال بالنسبة إلى دعاة حقوق الإنسان العرب، والسياسيين المبعدين، والناشطين الدينيين والعلمانيين، والعسكريين المطرودين والمغامرين العرب، الذين سمحت لهم الأوضاع بالتعبير عن أنفسهم في أوروبا والولايات المتحدة، سلبيًا وإيجابيًا. كل هذه الإرهاصات زاخرة باحتمالات التغيير التي لم تجد لنفسها متنفسًا في مثبتتها فهاجرت بحثًا عن النور والهواء، وأحيانًا الرزق، ولكنها في غالبيتها مازالت مسكونةً بالأم وأمال الوطن الأم.

أما شعب فلسطين المحتلة فهو من خلال نضاله المستمر، الذي يتأجج انتفاضاتٍ تراجميةً متوالية، يسعى لأن ينتزع في آن واحد حريته في تقرير مصيره الوطني على أرضه، وحريته في رسم حداته الخاصة به، على الرغم من وعورة الطريق إلى كلا الهدفين، وعلى الرغم من المعارضة الخارجية والداخلية العنيفة التي تنتشابه في بعض معطياتها ومثيلاتها في العالم العربي ككل. غير أن معاناة الاحتلال العسكري الإسرائيلي الغاشم من جهة، ومعاناة الاحتكاك الدائم بثقافة المستوطن اليهودي الغربي الحداثية من جهة أخرى، قد عجمتا عود الشعب الفلسطيني - في الداخل ولكن في الشتات بوجه خاص - وشحذتا وعيه، الأمر الذي أگسب بعضًا من أفراد

شجاعة المستميت في التعبير والاعتقاد والدفاع عن هويتهم. هذه الأصوات، برسوخ قناعاتها بحقها في أرضها وبانتمائها إلى هذه الأرض على الرغم من كل الضغوط الغاشمة من سلطات الاحتلال ومن سلطات الأعراف القروسطية، تمنحنا جميعًا، نحن الذين أنسينا أو تناسينا، بصيص أمل في استمرار التواصل والتفاعل بين واقعا وطموحنا، بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، بين خصوصيتنا وإنسانيتنا، بين تراثنا وانتمائه الإنساني العالمي واللامحدود قبل كل شيء.

نحو هوية عربية معاصرة

هذه هي، في رأيي، المهمة الأولى التي تواجه المثقفين والسياسيين والمواطنين العرب الحداثيين اليوم في الوطن والمغرب في أن، في محاولتهم صياغة هوية عربية معاصرة ومتحررة وواعية وعلمانية منفتحة. يجب على هؤلاء العروبيين تجاوز الحاضر الشوقيبي والمنطلق على ذاته، والتركيز على البعد الثقافي الحق - أي البعد المتعدد الثقافات المنفعل والمتفاعل مع الآخر الذي خبّره تاريخنا في أغلبه وفي لحظاته المضيئة كلها.

لقد أضحت هذه المهمة أكثر حرجًا وأهمية بعد هجمات الحادي عشر من

أيلول على واشنطن ونيويورك، تلك الهجمات التي يبدو أنها عمقت من التضاد المستشري ما بين الشرق العربي بوجه خاص، والمسلم بشكل عام، من جهة، والغرب التكنولوجي ومدعي العلمانية سياسيًا وحقوقيًا، والذي ما زال ثقافيًا مسيحيًا - يهوديًا في دخيلته، من جهة ثانية. ولا أعتقد أن مقارعة الاستعمار الأميركي الجديد الذي أفرزته هجمات الحادي عشر من أيلول، أو الإسرائيلي القابع على صدر العالم العربي منذ ١٩٤٨، تكون باقتباس أدواته العنصرية أو التمييزية. بل إن الطريق الأمثل يكون في تدفق الحوار الثقافي والسياسي والاجتماعي في العالم العربي وخارجه، هذا الحوار الذي ترأّج الدور العربي في المساهمة فيه وإذكائه تراجعًا كبيرًا في العقود الأربعة الأخيرة، بحيث أصبحت الثقافة العربية هامشيةً فعلاً، لا على الصعيد العالمي - وهذا هاجس كبير ولكنه مفهوم تاريخيًا بسبب سطوة الفكر الغربي - ولكن أيضًا على الصعيد الإسلامية والآسيوية - الأفريقية والعالمية، أي الدوائر الثقافية الثلاث التي تنتمي إليها الثقافة العربية والتي يُمكنها نظريًا أن تكون في مراكز العقد منها بفضل انتشار اللغة العربية وتغلغلها في ثقافات شعوب مختلفة ونتيجةً لتشابه الماضي القريب والآمال والمآل.

ومع ما يبدو اليوم كأنه سيادة للمدرسة الفكرية النيو - محافظة والمؤدجة في خضم انتصاراتها الآنية ومن خلال تموقعها الحالي في قلب صناعة القرار في الولايات المتحدة نفسها من جهة (خاصةً مع التركيبة الثانية للرئيس جورج دبليو بوش) وفي العديد من مواقع الحكم العربية وغياب الأحياء المكتظة والمهيضة في العالمين العربي والإسلامي أو في تخوم جبالهما الوعرة من جهة أخرى، فإن الفكرة العامة التي تمثلها عبارة صموئيل هنتغتون المسرحية «صراع الحضارات» أوهى بكثيرٍ فكرياً وتاريخياً مما تدعى. فالتاريخ، وعاء التجارب الإنسانية الواسع والدائم، لا يحب التضادات الحديثة الثابتة بين الشعوب والأقوام والثقافات والحضارات، بل هو يقوِّضها على أوهامها كلما شمخت راسخةً متباهيةً، ويفتُّ من اكمال هياتها كلما استمرأت ثباتها وديمومتها لكي يفنق حدودها ويجعل التشابه والتكامل

والاندياح المتبادل بين الثقافات المختلفة - متحاباً كانت أو متباغضة - معيارَ حركته وعلامة تدفُّقه وعنوان واقعه. فالثقافات تتعارف وتتقاطع وتتبادل التأثيرَ باستمرار. ولعل هذه هي حقيقة التاريخ الأولية والدائمة التي لا تُطغى عليها أي حقيقة أخرى. ولا يوجد أصلاً تضاداً كاملاً بين الحضارات أو الثقافات في التاريخ، اللهم إلا تلك التي لم تتعارف وتتقاطع بسبب بعد المسافة واستحالة المواصلات، وبالتالي لا يُمكنها أن تكون متضادةً تعريفاً وواقعاً. أما تلك الحضارات التي تعارفت وتعايشت وتحاربت وتصالحت وتقاطعت وتبادلت المعرفة والسلع والناس والأفكار، فهي - بحكم تقاطعها في الزمان والمكان والعقائد - لم تتمكن من المحافظة على وهم تضادها إلا في اللحظات العويصة عندما كانت هويتها وكيونيتها مهددتين بالذوبان والاختفاء. وحتى في تلك اللحظات القصيرة لم يكن التضاد الحدي أكثر من وهم سطحي استعمله

المؤججون العقائديون - من سياسة ومنظرين وعسكريين في كلا الطرفين - للمحافظة على امتيازاتهم أو لكونهم قد ابتدأوا يصدّقون رسالة «النقاء» العرقي والحضاري أو الديني التي لفقوها أساساً لأنها أسهل على التصديق، أو لأنهم اقتفوا خطى مفكرين سياسيين أكثر منهم فاشيةً وانغلاقاً وعدوا شعوبهم بالنصر والسيطرة، وفي غالب الأحوال لم يجلبوا لها سوى الدمار والخراب وسوء السمعة. وما حملات الإعلام المكتوب والمرئي والمسموع المحمومة والعنصرية اليوم، أو الحروب والنزاعات والتحالفات الدولية والعمليات العسكرية أو «التخريبية الإرهابية» والتفجيرات والاعتقالات التي أصبحت على ما يبدو ديدن العلاقة ما بين الغرب والعرب، إلا الافرازات العلمية الناتجة من قبول التضادات القومية أو العرقية أو الدينية الحديثة كحقائق تاريخية وكواقعٍ معيشٍ وحتمي - وما هي بذلك.

بوسطن